الفصل الثامن عشر

◈ ◈ ◈

إرشادات وحِكم

على الرغم من أننا استخدمنا شخصيتي قابيل وهابيل من باب الاستعارة لتبيان العوامل التي تجعل المكر أشد مضاء من الكفاءة والمقدرة في الكثير من الأحيان، ولكن ذلك لا يعني بأن المنافسة بين قابيل وهابيل ترقى إلى مستوى الحرب بين الخير والشر، وذلك لأن قابيل ليس شيطاناً كما أن هابيل ليس ملاكاً. والحقيقة هي أن هذين النموذجين يمثلان أناساً عاديين يعملون في ميدان التجارة والسياسة.

والواقع أنه من النادر أن تجد شخصاً يمكن وصفه بأنه قابيل «مئة بالمئة» أو هابيل مئة بالمئة. إن أغلب الناس تتنازعهم رغبتان أو نزعتان متضاربتان، وثمة صراع دائم بين هاتين النزعتين وجميعنا معرضون للخضوع للإغراء في ظروف معينة. وهذا الصراع يقرر في النهاية الطبيعة الشخصية لكل منا وبالتالي يحدد مسارنا.

العالم الحقيقي

سبق وأشرنا إلى أن العالم الحقيقي بعيد عن المثالية، والعلاقات التجارية والسياسية يتخللها ممارسات لا تبعث على الارتياح بفضل وجود

obeikandi.com

قابيل وأمثاله. ولو كان عالمنا عالماً يسوده التعاون والإخاء، لكان النجاح فيه للمقدرة والكفاءة والتعاون البنّاء مع الآخرين بصدق واستقامة. والمؤسف أن ذلك لا يتأتى عموماً في بيئة العمل داخل الشركة أو المؤسسة. والحياة اليومية في إطار هذه البيئة لا تنصف أحياناً من يقع عليه الظلم.

وليس من المفيد لـ «هابيل» أن يستسلم للأسى أو يبقى متمسكاً بمبادئه الأخلاقية في حين يجني قابيل ثمار دسائسه ومكائده في نهاية المطاف. نخلص إلى القول بأن على هابيل أن يصبح أكثر فطنة، وأن يرى العالم كما هو لا كما يتمناه. لذلك يتعين على هابيل أن يفعل شيئاً عوضاً عن البقاء مكتوف اليدين.

إن أهم خطوة في مواجهة أية مشكلة تكمن في الإقرار بوجود مشكلة حقيقية. أما الخطوة الثانية فتكمن في تشخيص المشكلة بدقة كي يتسنى تحديد العلاج الملائم لها.

إن الغرض من هذا الكتاب تنبيه القارئ وتوعيته إلى وجود أمثال قابيل بين ظهرانينا، والوسائل التي يستخدمها لبلوغ مآربه. ومما لا شك فيه بأن التسلح بالمعرفة في هذا السبيل، يمكّن هابيل من اتخاذ ما يلزم من احتياطات والتصدي بنجاح لـ «قابيل» وأمثاله، لا سيما وأن هابيل وأشباهه يشكلون نسبة ضئيلة، وهذا بحد ذاته يصب في مصلحة هابيل من حيث أنه يستطيع الإتكال على الدعم المعنوي الذي يقدمه أمثال هابيل، شريطة أن يستخدم معرفته لإحباط مساعي ومخططات قابيل قبل أن يستفحل خطرها.

من الواضح أن ما عرضناه من تحليل وإرشاد يفترض بأن قابيل موجود فعلاً في المحيط الذي تعمل فيه. أما إذا كانت المؤسسة خالية من أمثال قابيل ولكنك بصدد تعيين رجل تشتبه بمؤهلاته وتظن بأنه واحد من النماذج العديدة لـ «قابيل»، فمن المفيد أن تسارع بالتحقق من خبرته السابقة وذلك بالإتصال بالشهود[1] لمعرفة رأيهم، ولكن الأفضل أن تتصل بالشركة أو

(1) يقصد بـ «شهود» الأشخاص الذين يذكرهم المتقدم بطلب عمل في سيرته الذاتية، وذلك للرجوع إليهم طلباً للمعلومات عن أخلاقه ومقدرته.

المؤسسة التي كان يعمل بها سابقاً للإستعلام عن طبيعة عمله ونشاطه في الشركة، شريطة أن يكون حديثك مع أناس غير الشهود الذين ذكرهم في سيرته الذاتية. وقد يبدو لـ «هابيل» وأمثاله أن القيام بتحريات من هذا القبيل أمراً غير مستحب ولكن الاحتياط واجب لا سيما عندما يتعلق الأمر بتعيين رجل في منصب مسؤول، أضف إلى ذلك أن القرار في هذه الحالة سيؤثر بشكل أو بأخر على العديد من الموظفين. والمرشح الذي يبدي استيائه من تقصي الحقائق المتعلقة بسيرته الذاتية، فذلك لأنه على الأرجح يريد أن يخفي شيئاً.

العبر المستخلصة

لا بد من التأكيد على أن قابيل وعلى الرغم من جميع مساوئه ليس شخصاً شريراً بكل معنى الكلمة، وهذا في حقيقة الأمر مصدر قوته.

يقول الكاتب الفرنسي لاروشفوكو الذي عاش في القرن الثامن: «ثمة أناس فاسدون يتمتعون بقدر من الصفات الحميدة، وهؤلاء أشد خطراً من أولئك الذي لا يتمتعون بأية صفات مماثلة»، والكاتب على حق من حيث أن الرجل (قابيل) الذي يتمتع ببعض الصفات الحميدة يستطيع أن يستغل الآخرين بسهولة أكثر، وهذا ما يجعله أشد خطراً.

بعد كل هذا التحذير والتنبيه، بقي أن نشير إلى المصير المحتمل لـ «قابيل» وأمثاله لعل في ذلك بعض العزاء.

أولاً، ثمة ما يشير إلى أن قابيل في أغلب الأحيان يخفق وتبوء مساعيه بالفشل في نهاية المطاف. إذ لا بد عاجلاً أم آجلاً أن يفقد احترام زملائه وثقتهم، وسيجد نفسه مضطراً لمواجهة أعداء كثر، وعندئذ ستصبح أيامه معدودة.

وقد يقول قائل: إذا كان ذلك هو مصير قابيل المحتوم، فلماذا إذن كل هذا التحليل، وكل هذه الإرشادات حول كيفية التعامل مع قابيل وأمثاله؟ وقد رأينا أن بعضهم يفلت من العقاب لمدة طويلة قبل أن ينكشف أمرهم.

إن غرضنا ليس الابتهاج بما سيؤول إليه مستقبل قابيل على الرغم من أنه يستحق هذا المصير، بل مساعدة الناس على التصدي بنجاح لـ «قابيل» وأمثاله في الحالة الراهنة. بمعنى آخر، كيف يجب أن تنظر إلى المنافسة مع قابيل في «العالم الحقيقي».

العالم الحقيقي يكمن في داخلك

إذا كنت من أولئك الذين ينظرون إلى الحياة بمرارة، أو كنت تنظر بعين الحسد إلى من يحالفهم النجاح، أو تنظر إلى الحياة نظرة متشائمة، فعلى الأرجح أنك لن تتفوق على منافسيك أياً كانوا. إن الانهزامية تدفع بالمرء إلى توقع الهزيمة. أما إذا كنت تحب الحياة وتستمتع بعملك، وتعتبر أية مصاعب بمثابة تحديات يمكن تذليلها، فعلى الأرجح أنك ستنجح في مساعيك وستتفوق على منافسيك.

المعنى الحقيقي للفوز

إن الفائدة التي تجنيها من النظر بإيجابية إلى الحياة تتجاوز النجاح في عملك وتحقيق أهدافك في الحياة، إن الفوز الحقيقي يكمن في السعادة اليومية التي يشعر بها المرء حين يعيش حياته بصورة منسجمة مع ذاته ومع الآخرين. وهذه السعادة لا يمكن لـ «قابيل» أن يشعر بمثلها. والواقع أن عدم رضا قابيل عن نفسه وأسلوب حياته ينمي فيه الطمع والحسد والشعور بالمرارة. وبصرف النظر عن المال والجاه والمركز الذي يتبوئه، فإن قابيل يبقى حبيس طمعه وأساليبه الملتوية ولن يحظى إلا باحترام وإعجاب قلة قليلة من الناس.

من العداوة ما ينالك نفعه[1]

ليس من السهل أن تنظر بعين الفيلسوف إلى الفرد الذي يكدر حياتك.

(1) الشطر الأول من بيت للمتنبي:

ومن العداوة ما ينالك نفعه ومن الصداقة ما يضرُ ويؤلمُ

وبعض الناس يمتلك القدرة أو الإرادة على السمو فوق العداوات الشخصية. والبعض الآخر قادر على السيطرة على رد فعله إذا اقتضت مصلحته ذلك. وقد أبدى الفيلسوف اليوناني القديم أنتستين الملاحظة التالية: «خذ بجدية ما يقوله أعداؤك، فهم أول من يكشف لك عن أخطائك»، إننا نكتشف نقاط ضعفنا من خلال مواجهاتنا مع الأفراد الذين يعارضوننا، كما نتعلم من السياق نفسه دروساً صعبة في فن المناورة واللعب على الحبلين.

يجب أن تتعلم السيطرة على غضبك وأن لا تدع الضغينة والكراهية التي تكنها لمعارضيك تقرر سلوكك، وإلاّ تحولت هذه الكراهية إلى حالة مرضية. وقد يخيل للمرء بأن الكراهية تقوي عزيمته وتجعله أكثر إصراراً على الفوز، إلا أنها في الوقت نفسه تدفعه إلى التهور وعدم التفكير بوضوح وعقلانية، فضلاً عن آثارها السلبي على الصعيد النفسي والعاطفي والجسمي وكذلك الروحي.

فكر بتأنٍ وتذرع بالصبر ثم نفذ قرارك بجرأة

يقول المفكر ورجل الدولة البريطاني إدمند بيرك محذراً: «إن كل ما تحتاجه قوى الشر لأن تنتصر في هذا العالم هو أن يقف عدد كاف من الرجال الصالحين موقف المتفرج» وقد يبدو للبعض أنه من الحكمة أن نقف موقف المتفرج تاركين قابيل يحتال على الآخرين ويهضم حقوقهم، ولكن الجبن في مثل هذه المواقف يمكن أن يقض مضجعك لبقية حياتك. كن واقعياً والزم جانب الحذر في اختيار الوقت المناسب والوسائل المناسبة لاستبعاده أو الإطاحة به. وعلى أية حال كن أميناً لمبادئك ولا تدعه يجني ثمرة أفعالك.

وأخيراً، تذكر نصيحة مارك تواين: «قف دائماً إلى جانب الحق، الأمر الذي سيثلج قلوب البعض، ويذهل من لم يكن يتوقع منك ذلك».